القضايا الكبرى فى الاسلام

٥ ـ قتل حجر بن عدى

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

هذه القضية من أكبر القضايا الإسلامية ، وقد قام المسلمون وقعدوا لها ، وعدوها على معاوية بن أبى سفيان فى أربع عدوها عليه . روى ابن الجوزى بإسناده عن الحسن البصرى أنه قال : أربع خصال كُنّ فى معاوية لو لم يكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة ، وهى أخذه الخلافة بالسيف من غير مشاورة ، وفى الناس بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلاف ابنه يزيد وكان سكيراً خميراً ، يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقتله حُجْر بن عَدِىّ ، فياويلاً له من حجر وأصحاب حجر

وهذا إلى ما بلغه عدد الشهود فى هذه القضية ، فقد بلغوا فيها سبعين شاهداً ، ولم تصل إلينا قضية إسلامية بلغ الشهود فيها مثل هذا العدد ، وكل هذا يدل على ما لهذه القضية من الشأن فى الإسلام ، وسنقوم بدرسها غير متأثرين فيها إلا بما يقضى به الشرع ، لأن حكمه فوق كل شخص ، ويجب أن يكون نافذاً فى الناس كلهم ، كبيرهم وصغيرهم ، ورفيعهم ووضيعهم

كان حجر بن عدى من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد شهد القادسية فى خلافة عمر ، وشهد بعد ذلك الجمل وصفين ومحب عليًا ، فكان من شيعته ، وكان من أعظم الناس ديناً وصلاة وعلماً ، ولكنه كان مغالياً فى تشيعه ، حتى إنه لم يسترح لما استراح له الناس جميعهم من تسليم الحسن بن على لمعاوية ابن أبى سفيان . واجتماع كلمة المسلمين بعد ذلك الخلاف الذى كاد يقضى عليهم

وقد تم ذلك الصلح سنة إحدى وأربعين من الهجرة ، فاستعمل معاوية المغيرة بن شعبة على الكوفة ، وأوصاه فيما زعم المؤرخون ألا يترك شتم على وذمه ، والترحم على عثمان والاستغفار له ، والعيب لأصحاب على والإقصاء لهم ، والإطراء بشيعة عثمان والإدناء لهم ، فأقام المغيرة عاملاً على الكوفة وهو أحسن شىء سيرة ، ولكنه كان لا يدع شتم على والوقوع

انحطاطه ، وهو كما قلنا أيسر تأليفاً وأقل عمقاً من سابقه . ومن أمثلته المتأخرة قول ابن نباته ملغزاً فى « القطائف » :

أحاجيك ، ما حلو اللسان وإنه لأبكم إذ تعزى إليه المعارف
يُرى جالساً فى الصدر ما كان كاملاً
فإن نقصوه فهو فى الحلق «طائف»

وللشريف فتح الدين القنائى يلغز فى « كمُّون » :

يأيها العطار أعربْ لنا عن اسم شىء قل فى سوْمكْ
تبصره بالعين فى يقظة كما يرى بـ«القلب» فى «نومك»

وذلك أن مقلوب أحرف « نومك » هو « كمون » ...

وقال صلاح الدين الصفدى ملغزاً فى « الفيل » :

أيما اسم تركيبه من ثلاث وهو ذو أربع ، تعالى الإله !
حيوان و «القلب» منه نباتٌ لم يكن عند جوعه يرعاه
« فيك » تصحيفه ، ولكن إذا ما رمت عكساً يكون « فى » ثلثاه

وقال آخر ملغزاً فى « بلبل » :

وما طائر نصفُه كله له فى ذرى الدوح سير وليث
رأينا ثلاثة أرباعه إذا صحفوها غدت وهى «ثلث»

وكانوا ربما يهوى أحدهم إلى درك من السخف بعيد فيقول :

يا من له الطول فى المعالى وبالمعانى لنا يبصّرْ
إنى كما قلت فى سؤالى مامثل قولى : نعم مقصّر !

و « نعم مقصر » يرادفها « إى وَان » ؛ فذلك لغز فى « إيوان » بعث به على بن الحسين الموصلى إلى صديقه ومعاصره صلاح الدين الصفدى

وقريب منه قول شهاب الدين بن حجر ملغزاً فى « صهباء » :

يا فاضلاً هو فى الأحا جى ليس يخلو من ولع
ما مثل قولك للذى يبكى الحبيب : « اسكتْ رجَع ! »

(يتبع)

محمود عزت عرفة

فيه ، والدعاء لعثمان والاستغفار له ، فإذا سمع ذلك حجر بن عدى قال : بل إياكم ذم الله ولعن ، ثم قام وقال : أنا أشهد أن من تذمون أحق بالفضل ، ومن تزكون أولى بالذم ؛ فيقول له المغيرة يا حجراتق هذا السلطان وغضبه وسطوته . فإن غضب السلطان يهلك أمثالك . ثم يكف عنه ويصفح ، فلما كان آخر إمارته قال فى على وعثمان ما كان يقوله ، فقام حجر فصاح صيحة بالمغيرة سمعها كل من بالمسجد ، وقال له : مر لنا أيها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستها عنا وليس ذلك لك . فقام أكثر من ثلثى الناس يقولون : صدق حجر وبَرَّ ، مُرْ لنا بأرزاقنا ، فإن ما أنت فيه لا يجدى علينا نفعاً . وأكثروا من هذا القول وأمثاله ، فنزل المغيرة ودخل عليه قومه فقالوا : علام تترك هذا الرجل يجترىء عليك فى سلطانك ؟ فقال لهم : إنى قد قتلته ، سيأتى من بعدى أمير يحسبه مثلى ، فيصنع به ما ترونه يصنع بى ، فيأخذه ويقتله

ثم توفى المغيرة فضم معاوية الكوفة إلى زياد بن أبى سفيان ، فقدم إليها من البصرة ، ثم قام فى الناس فخطبهم ، وترحم على عثمان وأثنى على أصحابه ، ولعن قاتليه ، ورجع إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث ، فبلغه أن حجراً يجتمع إليه شيعة على ، ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، وأنهم حصبوا عمرو بن حريث ، فشخص إلى الكوفة وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه — وحجر جالس — ثم قال : أما بعد فإن غِبَّ البغى والغى وخيم ، إن هؤلاء جَرُّوا فأشروا ، وأمنونى فاجترؤا علىَّ ، والله لئن لم تستقيموا الأداوينكم بدوائكم ، ولست بشىء إن لم أمنع الكوفة من حجر ، وأدعه نكالا لمن بعده

ثم أرسل إلى حجر يدعوه وهو بالمسجد ، فقال له أصحابه لا تأته ولا كرامة ، فرجع الرسول فأخبر زياداً بذلك ، فأمر صاحب شرطته أن يبعث إليه جماعة ، ففعل فسبهم أصحاب حجر ، فجمع زياد أهل الكوفة وقال لهم أتشجُّونَ بيد وتأسون بأخرى ، أبدانكم منى وقلوبكم مع حجر الأحمق ، هذا والله من دحسكم ، والله لتظهرن لى براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودَكم وصعرَكم . فقالوا : معاذ الله أن يكون لنا رأى إلا طاعتك وما فيه رضاك . فقال لهم : فليقم كل رجل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته وأهله ، ففعلوا وأقاموا أكثر أصحابه عنه ، ثم بعث زياد صاحب شرطته إلى حجر وأمره أن يشد عليه وعلى أصحابه بالسيوف إن لم يتبعوه ، فأتاه صاحب الشرطة يدعوه فمنعه أصحابه من إجابته ، وحصل بين الفريقين قتال لجأ بعده حجر إلى داره ، ثم انتقل منها إلى دور بعض أهل الكوفة يحتمى بها ، ولما ضاق عليه الأمر أرسل إلى محمد ابن الأشعث الكندى ليأخذ له من زياد أماناً حتى يبعث به إلى معاوية ، فجمع محمد جماعة ودخلوا على زياد فاستأمنوا له على أن يرسله إلى معاوية فأجابهم ، فأرسلوا إلى حجر فحضر عند زياد ، فلما رآه قال : مرحباً بك أبا عبد الرحمن ، حرب فى أيام الحرب ، وحرب وقد سالم الناس ، على أهلها تجنى براقش . فقال حجر : ما خلعت طاعة ، ولا فارقت جماعة ، وإنى لعلى بيعتى . فقال زياد : هيهات هيهات يا حجر ، تَشُجُّ بيد وتأسو بأخرى ، وتريد إذا أمكن الله منك أن ترضى ، كلا والله . فقال حجر : ألم تؤمنى حتى آتى معاوية فيرى فىَّ رأيه ؟ فقال زياد : بلى قد فعلنا ، انطلقوا به إلى السجن

ثم بعث زياد إلى أصحاب حجر حتى جمع منهم اثنى عشر رجلا فى السجن ، ودعا رؤساء الأرباع وهم عمرو بن حريث وخالد بن عرفطة وقيس بن الوليد وأبو بُردة بن أبى موسى الأشعرى ، وقال لهم : اشهدوا على حجر بما رأيتم منه ، فشهدوا أن حجراً جمع إليه الجموع ، وأظهر شتم الخليفة ، ودعا إلى حرب أمير المؤمنين ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا فى آل أبى طالب ، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه ، وعلى مثل رأيه وأمره

وقد نظر زياد فى شهادتهم فقال : ما أظن هذه الشهادة قاطعة ، وإنى لأحب أن تكون الشهود أكثر من أربعة . فكتب أبو بردة شهادة غيرها قال فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما شهد عليه أبو بردة بن أبى موسى لله رب العالمين ، شهد أن حجر بن عدى خلع الطاعة ، وفارق الجماعة ، ولعن الخليفة ، ودعا إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة ، وخلع أمير المؤمنين معاوية ، وكفر بالله عز وجل كفرةً

صلحاء[1]. فقال زياد : على مثل هذه الشهادة فاشهدوا ، أما والله لأجهدنّ على قطع خيط عنق الخائن الأحمق . فشهد عليها سبعون شاهداً من وجوه أهل الكوفة

ثم بعث زياد بحجر وأصحابه إلى معاوية ومعهم هذه الشهادة ، فحبسهم بمرج عذراء ، وكتب إلى زياد : أما بعد فقد فهمت ما اقتصصت به من أمر حجر وأصحابه ، وشهادة من قِبَلَكَ عليهم ، فنظرت فى ذلك ، فأحياناً أرى قتلهم أفضل من تركهم ، وأحياناً أرى العفو عنهم أفضل من قتلهم ، والسلام

فكتب إليه زياد : أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت رأيك فى حجر وأصحابه ، فعجبت لاشتباه الأمر عليك فيهم ، وقد شهد عليهم بما قد سمعت من هو أعلم بهم ، فإن كانت لك حاجة فى هذا المصر فلا تردنّ حجراً وأصحابه إلىّ

فلما قرأ معاوية كتابه أمر بقتل حجر وسبعة من أصحابه ، وعفا عمن بقى منهم بشفاعة بعض أصحابه من قومهم ، وكان مالك بن هبيرة السكونى قد قال لمعاوية : يا أمير المؤمنين دع لى ابن عمى حجرا . فقال له معاوية : إن ابن عمك حجرا رأس القوم ، وأخاف إن خليت سبيله أن يفسد على مصرى ، فيضطرنا غداً إلى أن نشخصك وأصحابك إليه بالعراق . فلما قتل معاوية حجرا اعتزل مالك معاوية فى منزله ، فأرسل إليه معاوية أن يأتيه فأبى ، فبعث إليه بمائة ألف درهم ، وقال له : إن أمير المؤمنين لم يمنعه أن يشفعك فى ابن عمك إلا شفقة عليك وعلى أصحابك أن يعيدوا لكم حرباً أخرى ، وإن حجر بن عدى لو قد بقى خشيت أن يكلفك وأصحابك الشخوص إليه ، وأن يكون ذلك من البلاء على المسلمين ما هو أعظم من قتل حجر . فقبلها وطابت نفسه ، وأقبل إليه من غده فى جموع قومه حتى دخل عليه ورضى عنه

ولكن كثيراً من الناس لم يقبلوا هذا العذر من معاوية فى قتل حجر وأصحابه ، وأنكروا عليه هذا الحكم إنكاراً شديداً ، وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : لو لا أنا لم نغير شيئاً إلا آلت بنا الأمور إلى أشد مما كنا فيه لغيّرنا قتل حجر ، أما والله إن كان ما علمت إلا لمسلماً حجّاجاً معتمراً . وقد رثته هند بنت زيد الأنصارية وكانت تَشَيَّعُ فقالت فى رثائه :

ترفع أيها القمر المنير ... تبصّر هل ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ... ليقتله كما زعم الأمير
تجبّرت الجبابر بعد حجر ... وطاب لها الخورنق والسدير
ألا يا ليت حجراً مات موتاً ... ولم ينجركما نحر البعير
فإن يهلك فكل زعيم قوم ... من الدنيا إلى هلك يصير

والذين لا يعذرون معاوية فى قتل حجر يرون أن ما حصل منه لا يحل به سفك دمه ، لأن دم المسلم حرام ما لم يرتد عن دينه أو يسفك دم غيره ، وقد حملوا فى ذلك آية الحرابة على خلاف ظاهرها ، وهى قوله تعالى فى الآية — ٣٣ — من سورة المائدة (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) فذهبوا إلى أن أو فى هذه الآية للتفصيل لا للتخيير ، وعلى هذا يكون جزاء أولئك المحاربين أن يقتلوا إذا قتلوا ، وأن يصلبوا إذا قتلوا وأخذوا المال ، وأن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إذا أخذوا المال ولم يقتلوا ، وأن ينفوا من الأرض إذا أخافوا الناس ولم يأخذوا مالاً ولم يقتلوا

ولا شك أن هذا كله خلاف ظاهر الآية ، ولهذا ذهب كثير من السلف إلى أن أو فيها للتخيير لا للتفصيل ، فيكون ولى الأمر مخيراً فى هذه العقوبات يجتهد فيها على ما تقتضيه مصلحة الدولة ، ولا يتقيد فيها بتلك القيود السابقة ، وقد أخذ معاوية بهذا فى حكمه على حجر ، ورأى أنه أمام فتنة إذا لم يأخذ فيها بأقصى العقوبة استطار شرها ، ويكون فى ذلك من البلاء على المسلمين ما هو أعظم من قتل حجر وأصحابه ، وقد كان له أن يأخذ فى ذلك بأخف هذه العقوبات وهو النفى من الأرض ، ولكنه استعمل فيه حقاً أباحه له الله تعالى ، وله فى ذلك اجتهاده الذى يعذر فيه ولو كان خطأ ، ولو أنه استعمل فى ذلك أخف هذه العقوبات لكان أولى وأحسن

وكان على حجر وأصحابه أن يتعظوا بتلك الفتن التى ذهبت فيها دماء من لا يحصى من المسلمين ، وقتل فيها خليفتان من الخلفاء الراشدين ، وأن يسعهم فى ذلك ما وسع من كان أعلى منهم مقاماً ، وأعظم شأناً ، وأقوى كلمة ، من كبار المهاجرين

(١) يرى فى هذا أن الخروج على الامام والجماعة كفراً ٢٨ ، ٢٢